البلاغة العصرية واللغة العربية

تأليف الأستاذ سلامة موسى

للأستاذ أحمد محمد الحوفي

— ٣ —

دعوته إلى العامية — دعوته إلى الحروف اللاتينية —
دعوته إلى إلغاء الاعراب . . . . . .

— ١ —

« يجب ألا يكون للمجتمع لغتان إحداهما كلامية أي عامية ، والأخرى مكتوبة أي فصحى كما هي حالنا الآن في مصر وسائر الأقطار العربية ؛ لأن نتيجة هذه الحال أن اللغة المكتوبة تنفصل من المجتمع فتصبح كأنها لغة الكهان التي لا تتلى إلا في المعابد ، وينقطع الاتصال الفسيولوجي بينها وبين المجتمع فلا تتطور ، ولهذا يجب أن تكون غايتنا توحيد لغتي الكلام والكتابة ، فنأخذ من العامية للكتابة أكثر ما نستطيع ، ونأخذ من الفصحى للكلام أكثر ما نستطيع حتى نصل إلى توحيدها » ص ٤٧ .

لم يقنع المؤلف بالدعوة إلى استعمال الكلمات الأعجمية ، فعاد يحمل لهدم بنيان اللغة العربية الشامخ معولا قد حمله غيره من قبل فتثلم ، وضاعت الدعوة السابقة سدى ، وستذهب دعوته هذه أباديد لا رجع لها ولا صدى ، وأية دعوة أخطر على اللغة من اطراح الكلمات العربية واتخاذ العامية لغة فنية للشعر والكتابة والخطابة ؟ وما دامت العامية محرفة عن الفصحى فلم نفضل الدخيل على الأصيل ؟

ولم لا تكون الفصحى أحق بالاستعمال مادام القراء يفهمونها ؟

ونحن نرى في عصرنا هذا أن كثيرين جداً من الأميين يسمعون الصحف ويفهمونها ، ويصيخون إلى الخطب السياسية والدينية ويستوعبونها ، وينصتون إلى الأغاني الفصيحة ويحفظونها ، حتى إن الغلمان الذين لم يجلسوا إلى معلم يرددون في هذا العصر جملا مما حفظوا وهم لها فاهمون ، وليست اللغة الفصحى في نظري هي المحشوة بالغريب ، ولا العويصة التراكيب ، ولا الخفية المجاز ، وإنما هي التعبير الصحيح الجاري على قواعد اللغة وإن كانت مفرداتها في متناول الجميع .

فلن تنفصل الفصحى إذن من المجتمع ، ولن تصير كلغة الكهان التي لا تتلى إلا في المعابد ، فإن الشعب كله يفهمها ، ورقي الشعب يقربها إليه ويقربه منها .

ليس عندنا مبرر إذن لتطعيم لغتنا الفصحى بأكثر ما نستطيع من العامية ، ولا أحد يزعم أن العامية كالفصحى ثراء وسعة ومرونة وموسيقية ، فالعامية فقيرة ، وليست بصالحة لتصوير المعاني الراقية أو خلجات النفوس ، فمن أراد التنفيس عما يجيش بين جوانحه من عواطف استمد من معين الفصحى الثر الذي لا يغيض ، وإذا احتاج جرت على لسانه كلمات من الفصحى لم يزورها أو يتكلفها .

على أن العامية تختلف باختلاف الأصقاع والأقاليم ، فعامية الصعيد تغاير بعض المغايرة عامية الشمال ، وعامية مصر تخالف عامية الشام وهكذا ، فإذا أضفنا إلى لغة الأدب أكثر ما نستطيع من العامية انفصم الرباط الوثيق الذي ينتظم الأمة العربية ، ووأدنا الوحدة التي ننشدها وهي ما زالت في المهد .

وبم تسمى اللغة الجديدة ؟ وما خصائصها المميزة لها وهي أخلاط وأمشاج من فصحى ، وعامية منبثقة منها ، ومن تركية ، ومن أوروبية محرفة ، ومن أوروبية غير محرفة دعا الأستاذ إلى اصطناعها في المقال السابق ؟ ولسنا نجدنا يدعا في أن لغة الكتابة عندنا تغاير لغة الخطاب ، فهذه المغايرة عامة في اللغات كلها ، بيد أن الفرق عندنا أوضح وأبرز ؛ لطول العهد بالجهل ، والاستبداد ، ومحاربة اللغة القومية بالتركية آنا ، وبالإنجليزية والفرنسية آنا ، ولذا تقاربت اللغتان في ربع القرن الحاضر لما ذاعت الثقافة ، وتنسمنا الحرية واعتززنا بالقومية .

ولنفرض جدلا أن الأستاذ على حق في رأيه ، ولنتخذ لغة الأدب خليطاً من العربية والعامية ، ثم نترقب قرناً واحدا ، فإذا عامية جديدة تشتق من هذه اللغة الجديدة ؛ لأن الشأن في لغة الخطاب الميل إلى التيسير والتسهيل وعدم التحرز من الأخطاء ، فإذا نعمل آنئذ ؟ أنؤمن بأن لغة الكتابة لابد أن تتميز من لغة الحديث المعتاد ؟ أم ننشئ لغة جديدة للكتابة مختلفة من تلك

اللغة التي اعتسفناها من الفصحى والعامية ومن هذه اللغة العامية الناشئة ؟

وما مصير تراثنا العظيم من قرآن وحديث وشعر ونثر ؟

سيصير أحاجي وألغازاً ولغة أثرية دارسة لا يفقهها إلا قلة ممن يشغفون بدراسة الآثار القديمة شأن اللغة اليونانية واللاتينية ، فهما أصل اللغات الأوروبية الحديثة ولكن لا يعرفها إلا الأقلون . ربما رأى المؤلف أن الأوروبيين يترجمون روائع اليونان والرومان إلى لغاتهم الحديثة فلنصنع صنيعهم فنترجم حينئذ القرآن والحديث وروائع الشعر والنثر القديم إلى لغتنا الحديثة ، وأعتقد أن هذه فكرة من الهوان بحيث لا يتجادل فيها قلمان .

— ٢ —

« وعندى أن بعض المميزات لما يقترحه عبد العزيز فهمى باشا من اتخاذ بعض الحروف اللاتينية فى كتابتنا يعود إلى أن هذه الحروف تضمنا إلى مجموعة الأمم المتمدنة ، وتكسبنا عقلية المتمدنين » ص ١١٧

« والواقع أن اقتراح الخط اللاتينى هو وثبة إلى المستقبل ، لو أننا عملنا به لاستطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا التي أغلق عليها هذا الخط أبواب ماضيها وفتح لها أبواب مستقبلها » ص ١٣٨

أما اصطناع الحروف اللاتينية فى الخط العربى فإنه اقتراح صرعه النقد ، فلا حاجة بى إلى ذكر مساوئه الموتى .

ولا أذكر أن فى مصر مؤيداً آخر لهذا الاقتراح غير الأستاذ سلامة موسى . والجديد فى تأييده أن اصطناعنا الحروف اللاتينية يضمنا إلى مجموعة الأمم المتمدنة ، ويكسبنا عقليتها ، ويطلق علينا أبواب ما ضينا ، ويفتح لنا أبواب مستقبلنا كما حدث فى تركيا .

ولو أن التمدن وكسب العقلية رهينان باستعمال خط الأمم الراقية لسهل التمدن على كل أمة متخلفة عن ركب المدنية ، فما عليها إلا أن تستعير حروف أمة أرقى منها لتبلغ شأوها ، وتفكر على غرارها ، حتى وإن اتفقت الحروف واختلفت اللغة وتباين النطق والمعنى !

ومعنى هذا أن جميع من يلبسون الملابس الأفرنجية قد تمدنوا ، وأنهم يفكرون كما يفكر الأفرنج . وما الغرابة فى هذا القياس ، والزى ألصق بالمرء وأعظم تأثيراً فى شخصيته من الحروف التى يكتب بها بين الحين والحين ؟

لقد تحضرت الأمة العربية ولم تصطنع حروف أمة أرقى منها ، وانفلتت أوروبا من عقالها مسترشدة بأعلام العرب وصوامع وإشعاعهم ومع ذلك لم تتخذ حروفهم ، ووثبنا نحن منذ عصر إسماعيل وثبات بدون حاجة إلى حروف اللاتين لتحفزنا إلى الوثوب ، أو تجذبنا نحو الهدف المنصوب . وهاهى ذى اليابان أتت بالأعاجيب فى نهضتها على حداثة نشأتها ولم تتسلف من أمة أرقى منها حروف كتابتها .

ولو أن الحروف تصنع العقلية لتساوت عقلية الأمم التى تكتب بالحروف اللاتينية ، فليس المعول إذن على الحروف ولكن على الروح الذى يستعمل الحروف .

ولم تنهض تركيا لأنها استبدلت بحروفها العربية حروفاً لاتينية ، فقد حدث هذا الاستبدال بعد النهوض والاستقرار ، على أنها أبدلت مستعاراً بمستعار .

— ٣ —

« وليس على التلميذ من حرج أن يقرأ فيرفع المفعول وينصب الفاعل ما دام يفهم ما يقرأ ، أما فى المدارس الثانوية فنشرع فى تعليم أقل ما يستطاع من قواعد النحو ، ولا نبالى الإعراب الذى أثبت الاختبار أنه لا فائدة منه بتاتا ، والوقف فى أواخر الكلمات أى إسكانها هو الخطة السديدة التى يجب أن تتبع »

« وقد قال هربرت سبنسر إنه لم يتعلم النحو قط ، وإنه درس وألف فى هذه اللغة دون أن يحتاج إلى دراسة النحو ، ولا يمكن عربياً أن يقول مثل هذا القول عن لغته » ص ١٣٣

« واقتراح عبدالعزيز فهمى باشا يحتاج أولا إلى العمل بإلغاء الإعراب » ص ١٣٨

وهذا تجديد آخر ، أى هدم آخر لهذه اللغة التى قاومت الأعاصير أكثر من ألف عام ، وهى كالصخرة يرتطم بها الموج فينحسر ، وتنهال عليها معاول الهدم فتفل وتتكسر .

التجديد المخلص للغة العربية أن يلغى الإعراب منها فيرفع المفعول وينصب الفاعل مادام القارىء يفهم ما يقول ! ثم تبلبل

الأستاذ فقال إن إسكان أواخر الكلمات هو الخطة السديدة التي يجب أن تتبع ، والإسكان شيء والفوضى في الشكل شيء آخر .

ونحن نسأل الأستاذ : كيف يفهم القارئ ما قرأ وقد نصب الفاعل ورفع المفعول ؟ وروح اللغة التي يقرؤها لا تطاوعه على هذا الفهم ، وذوق القارئ نفسه ما دام قد فهم معنى ما قرأ لا يطاوعه على هذا الخليط ، بدليل أن العرب — قبل أن تستنبط القواعد من لغتهم — كانوا يرفعون الفاعل وينصبون المفعول بالسليقة ، لأن هذه الحركات في أواخر الكلمات ذات دلالات معنوية على المراد ؛ وهذه سليقة فيهم توارثوها وتناقلوها كما يأخذ أبناؤنا في هذا العهد عنا أوضاع لغتنا العامية .

ولذلك يقول عبدالقاهر الجرجاني في الرد على منكري ضرورة النحو : « وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له ، أو إصغارهم أمره وتهاونهم به فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم ، وأشبه بأن يكون صداً عن كتاب الله وعن معرفة معانيه ؛ ذاك لأنهم لا يجدون بداً من أن يعترفوا بالحاجة إليه ، إذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها ، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنه هو المعيار الذي لا يتبين نقصانه كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه ، ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه ، وإلا من غالط في الحقائق نفسه » .

ثم يقول مبيناً أن النحو نبراس لفهم المعنى بدقة : « وإذا نظرتم في الصفة مثلا فعرفتم أنها تتبع الموصوف ، وأن مثالها قولك : جاءني رجل ظريف ، ومررت بزيد الظريف ، هل ظننتم أن وراء ذلك علماً ؟ وأن ها هنا صفة تخصص وصفة توضح وتبين ؟ وأن فائدة التخصيص غير فائدة التوضيح ، كما أن فائدة الشياع غير فائدة الإبهام ؟ وأن من الصفة صفة لا يكون فيها تخصيص ولا توضيح ، ولكن يؤتى بها مؤكدة كقولهم (أمس الدابر) ، وكقوله تعالى : (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة) ، وصفة يراد بها المدح والثناء ، كالصفات الجارية على اسم الله تعالى جده ؟ وهل عرفتم الفرق بين الصفة والخبر وبين كل واحد منها وبين الحال ؟ وهل عرفتم أن هذه الثلاثة تتفق في أن كلا منها لثبوت المعنى للشيء ثم تختلف في كيفية ذلك الثبوت ؟ »[1]

فالنحو في رأي الجرجاني ليس لصحة الشكل فقط ، بل وللتعبير الدقيق عن المعاني ، وللفهم الدقيق لهذه المعاني ، فهو إذن من صميم اللغة وجوهرها .

وأما الزعم بأنه لا يستطيع عربي أن يجيد لغته بدون تعلم النحو فيدحضه أن العرب — إلى أن خالطوا العجم في الإسلام — كانوا يجيدون لغتهم غير مفتقرين إلى تعلم النحو ، وأن البارودي في هذا العصر أجاد اللغة فهما ، وأجاد الشعر نظما ، ولم يتعلم النحو ، وذلك بكثرة القراءة والحفظ ، لأنهما أجدى على المتعلم من قواعد النحو التي لا يصحبها تطبيق متكرر .

استمع إلى ما يقوله الشيخ حسين المرصفي في الوسيلة الأدبية عن البارودي وهو من أعرف الناس به : « محمود سامي البارودي لم يقرأ كتاباً في فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع بعض من له دراسة وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ وهو بحضرته حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ... ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ، ناقداً شريفها من خسيسها ، ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء » .

وقد فطن ابن خلدون قبل ذلك إلى أن الطريقة المثلى في تعليم اللغة الرائعة وكثرة الحفظ والقراءة ، لينطبع لسان المتعلم وفكره على اللغة ، وقرر أن سكان الأمصار أشد إغراقاً في اللحن من سكان البوادي ؛ لأنهم لقنوا أول الأمر لغة ملحونة فاعوجت ألسنتهم واختلطت لغتهم ، فالنحو وحده لا يكفي بل لابد من مخالطة الأعراب والتدرب على محادثتهم لأن اللغة ملكة والملكات لا تكتسب إلا بالتكرار والارتياض والمران ، فقد كان العربي يحاكي أهله في نطقهم وتعبيرهم كما يحاكي الطفل أهله في النطق بالمفردات والتراكيب ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « وهذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ، ولم يأخذوها عن غيرهم » .

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٣ .